إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصد ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا ، بل هى محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذى اعتنقوه ؛ فالمؤمنون هم الطائفة التى تلتزم بالتكليف من الله ، لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله :

« إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الحق يحدد قسما من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق وحق ودون تحامل . كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوى ، ويجيئون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفرادا مع الإسلام ؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب . لذلك يقول الحق « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة ، ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتى الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم فى نعيم المعرفة بالله ، فآيات الله تتلى عليهم ، ورسول الله ﷺ حق ومعهم وفيهم .

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إنّ لذلك قصة ؛ فقد كان اليهود فى المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ؛ لأنهم يجيدون التعامل فى المال ، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمى ؛ لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سماويا . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود

هو خبرتهم بالحرب ؛ فلهم قلاع وحصون . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والعلم . . بالكتاب وهو تفوق علمى ، ثم خبرتهم بفنون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج . والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التى يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وحّد الرسول صلى الله عليه وسلّم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادى . وجاء الاسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء فى بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود فى المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيدو الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجىء الإسلام ، فقالوا فلنؤجج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه « شأس بن قيس » وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمانى . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، هيَّج ذلك شأس بن قيس وقال : « والله لابد أن نعيدها جذعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا مادامو قد اجتمعوا » .

فأرسل فتى من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يسمى يوم « بعاث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفتى اليهودى يذكر ويأتى بالشعر الذى قيل فى هذا اليوم فهيَّج حمية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : « السلاح . . السلاح » وهكذا نجحت المكيدة ، ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهَوْا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبِدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم !!

أى كان من الواجب أن تخجلوا من أنفسكم ؛ لأن رسول الله بينكم ، وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول فى نفوس القوم ؟ لقد دفعتهم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشعال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يهيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن تهييج المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفعالات بابا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجيد ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصور لما حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذى دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطىء وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاقتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشىء ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشىء ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا ؛ النزوع السلوكى ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فألقوا السلاح ، وهدأت مواجيد البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة .

لقد ذكرهم النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هى : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم » . وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم البكاء ثانيا ، وهو أمر حركته المواجيد فيهم ثم تعانقوا أى صححوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والخيبة والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة: فما كان يوم فى الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخراً إلاّ ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بعبوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وُجدت الخلية التى تكوّن المناعة فى نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : « أبِدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضرا عند كل نزغ لشيطان ، أو كيد لعدو . لقد جعل الحق المناعة ضد فعل الكيد ، ونزغ الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله يسخر الكافر حتى فى رفعة شأن الإيمان ، فلو لم تحدث هذه المسألة ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليقول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتفاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوجدت المناعة لغيرها من الأحداث التى تأتى وقد لا يكون الرسول موجودا .

ولذلك فأنت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين . فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام ـ دون إرادتهم ـ بمواقفهم الحمقاء ، فمثلا حين قالوا : سيأتى نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذى حدث ؟

إن الأنصار ساعة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذى بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استعلاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعا للأوس والخزرج على الدخول فى الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثرا فى تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » نفهم أنه استعظام وتعجيب يأتى من الحق . فساعة تسمع : « كيف تكفرون » فذلك أمر عجيب ، لأنه من

المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم .

ويجيء من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يتأتى إلا فى علو ، فيقال : « اعتصمت بحبل الإيمان » لأن للإنسان ثقلا ذاتيا ، هذا الثقل الذاتى إن لم يرفعه سواه ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقا فى الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض . فمن يعتصم بالله ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهُوِىّ والسقوط .

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تُلِىَ علينا من الآيات ، وما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضرورى ، لأنهم كانوا منغمسين فى حمأة الجاهلية ، فلابد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضيء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام دينا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى »[1] .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هى العاصم الذى يهدى إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذى يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يدل إنسانا على الموصل للغاية اسمه هدى . والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعا ، وجعل بعض الخلق مقهورا ، وبعض الخلق مخيرا .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات فى الكون ما عدا الإنسان . إلا فى بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضا ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدى مهمته كما طُلبت منه ، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوما ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

تعصى الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت : لا ؛ إنك عاصٍ ، ولذلك سأحرن فلا أمكنك من ركوب ظهرى .

هكذا نرى أن كل شيء ماعدا الإنسان مسخر مقهور للغاية المرجوة منه ، وهو خدمة ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذى له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للخلق تسخيرا وتسييرا ، وجعل الإجماع فى كل الأجناس ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إن الجمادات الساجدة المسخرة هى : « الشمس والقمر والنجوم » ، والنبات الساجد المسخر هو « الشجر » ، وكذلك « الدواب » فهى ضمن الكائنات التى عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الإنسان فقد قال الحق عنه : « وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الله الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ أليس التسخير دليلاً على قدرة المسخر ، وأن شيئا من خلقه لن يخرج من قدرته ، هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصى ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية لله .

هكذا صنف الله الخلق بين قسم قهرى يثبت القدرة ، وقسم اختيارى يثبت المحبوبية ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا - إذن - لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهى منسجمة مع الإيمان ؟ لأن للشهوة بريقا سطحيا ، وهذا البريق السطحى يجذب الإنسان كما تجذب النارُ الفَرَاشَ .

عندما يوقد الإنسان نارًا ما فى الخلاء فضوؤها يجذب الفَرَاش ، ويحترق الفَراش بنيران الضوء ؛ فقد جذبه النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه فى تلك النار . والحكمة العربية تقول : « رب نفس عشقت مصرعها » كذلك فى الشهوات ، تتزين الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هى فى منهج الله « افعل » . و« لا تفعل » فمن يرد أن ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » . وقد قلت قديما : إنه من الحمق أن يصنع صانع صنعةً ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة . والإنسان فى حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صنع الإنسان ، ووضع الحق سبحانه وتعالى قانون صيانة صنعته فى الإنسان فقال جل وعلا : افعل كذا ولا تفعل كذا ، فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتى له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذى خلقه وهو الذى وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون الموجز فى « افعل ولا تفعل » .

ويقول الحق : « ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم » وكلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان فى الهواء معلقا فى الفراغ ، وهو فى أثناء وجوده فى الفراغ فإن ثقله الذاتى هو الذى يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط والهُوِى (بضم الهاء وكسر الواو) ومهمة الشيطان أن يزيّن المعصية بالبريق ، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى المعصية ، ولذلك يأتى الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟

أَنفُسَكُمْ مَّا أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(سورة إبراهيم)

والسلطان كما نعرف نوعان : النوع الأول هو أن يقهر الشيطانُ الإنسانَ ، والشيطان لا قدرة له على ذلك . والنوع الثانى هو أن يقنع الشيطان الإنسان بأن يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر فى هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئا لا يريده الإنسان . أما الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلن الشيطان يوم القيامة : لم يكن لى سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصى الله ، لقد زينت لك المعصية أيها الإنسان فاستجبت لى .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » ما معنى « مصرخكم » ؟ إنها مشتقة من « أصرخ » ، أى سمع صراخك فأغاثك وأنجدك ، فمصرخ : مغيث ومنجد ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ، ولا الإنسان يستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فثقل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان فى الهاوية دون أن يلقيه أحد فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كأن منهج الله هو الحبل الممدود إلينا ، فمن يعتصم به ينجو من الهاوية .

ومادمنا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة ، وسبحانه يعلم كيد النفس لصاحبها ـ فلابد أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بألا يسمعوا كلام أعداء الدين . وحين نسمع كلمة « اتقوا » فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى ، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها . والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

(من الآية ٤ سورة المائدة)

أى اجعل بينك وبين الله حجابا يقيك من غضبه . وقد يقول قائل : كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش فى معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات الجمال ، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك النار إنها من جنود صفات جلال الله . فحين يقول الحق : « اتقوا النار » أو « اتقوا الله » فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه : « اتقوا الله حق تقاته » ماذا تعنى (حق تقاته) ؟ إن كلمة « حق » - كما نعرف - تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزحزح ، أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

إذن ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانا راسخا لا يغادرك ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج

فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر . وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » ويذكر ولا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر فى كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنسيك النعمة المنعم .

ويشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله . ومادمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ولا تكفر بالنعم أى أنك تؤدى حق النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حقها تعنى أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

و قيل فى معنى : « حق تقاته » أى أنه لا تأخذك فى الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه « حق التقى » ، أى التقى الحق الذى يعتبر تقى بحق وصدق . وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة التغابن)

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : « فاتقوا الله ما استطعتم » ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوسع ، والناس قد تخطىء الفهم لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه . لا ، إن هذا فهم خاطىء ؛ إن قوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم » أى إنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به . فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو ـ سبحانه ـ الذى يخفف . . إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجا عن

استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجًا عن استطاعتك فالله هو الذى يخفف عنك . ولذلك فعلى الإنسان ألا يستخدم القول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع ، ثم يبنى التكليف على الوسع . بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس ، وهو الذى أنزل التكليف لوسع النفس ، ومادام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج . إنه سبحانه الذى كلف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها . فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما فى وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تامًّا فهو ـ سبحانه ـ يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص . مثال ذلك : المريض أو الذى على سفر ، له رخصة الإفطار فى رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة .

إذن فالله سبحانه هو الذى علم حدود وسع النفس التى خلقها ، ولذلك لا تقدر وسعك أولا ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قَدِّر التكليف أولا ، وقل : مادام الحق قد كلف فذلك فى الوسع . وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نجد أنفسنا أمام نهى عن فعل وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم .

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تمت ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار ؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنك تتعجب ؛ لأن أحدا لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهى عنه : لا تمت ليس فى قدرة الإنسان ، ولكن الحال الذى يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، فى قدرة الإنسان ؛ لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتى بغير عمل منى ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهى باستطاعتى ، لأن الإسلام يكون باختيارى . صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلما حتى يصادفك الموت فى أى لحظة وأنت مسلم .

إذن . . فقول الله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو نهى عن الفعل الأول وهو ليس باختيارنا . والحال الذى لنا فيه اختيار هو « وأنتم مسلمون » فكيف نوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد فيه ، ولا يعلم أحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأتى إلى الأمر الذى لنا فيه اختيار ، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكا بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت فى أى لحظة يكون مسلما وكأن الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

وإخفاء الموت عن الإنسان ليس إبهاما كما يظن البعض ، لا ؛ إنه منتهى البيان الواسع ؛ لأن إخفاء الموت ، وميعاده عن الإنسان زمنا وحالا ، وسنا وسببا ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان منا يترقب الموت فى أى لحظة ومادام الإنسان مترقبا للموت فى أى لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبيه للأوس والخزرج ، وكأنه يقول : اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان لأشياء وبأشياء ليست من الإسلام

فى شىء . لكن حين يجىء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تغاضى إنسان بما قبل الإسلام بقوله : منا كذا . . ومنا كذا . فهنا يأتى الردّ : لا ؛ إن ذلك قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : « منا خزيمة » فقال واحد من الخزرج : ومنا أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت فقال واحد من الأوس : منا حنظلة ابن الراهب وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة ، وخزيمة بن ثابت صحابى جليل جعل الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ؛ لأن خزيمة صاحب إيمان نورانى . ونورانية اليقين هدته إلى الحكم الصواب ؛ فقد اشترى النبى صلى الله عليه وسلم فرسا من أعرابى وذهب ليحضر له الثمن ، ولكن الأعرابى أنكر البيع لأن بعض الناس زاده فى ثمن الفرس دون علم أن الرسول قد اشتراه فنادى الأعرابى الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته .

فقال النبى للرجل : « ألست قد ابتعته منك » . فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد انتهز الرجل فرصة أن النبى ابتاع منه دون وجود أحد فى هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمة جالسا لحظة مطالبته للنبى بشاهد . فقال سيدنا خزيمة : أنا أشهد يا رسول الله أنك قد بايعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه : لعل خزيمة رآنا وأنا أبيع الفرس للنّبى فسكت الرجل وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمة . وقال له : « يا خزيمة بم تشهد ولم تكن معنا ؟» فقال : أنا أصدقك فى خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟ أعلم أنك لا تقول إلا حقاً قد آمناك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول أن لخزيمة نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلمّ : « من شهد له خزيمة فحسبه »[1] .

فالأمر الذى يحتاج شاهدين تكفى فيه شهادة خزيمة ، وبذلك أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم الوسام لخزيمة وجعل شهادته شهادة رجلين ، ولنر كيف جمع الله بين الأوس والخزرج فى جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت :

(١) رواه أبو داود من طريق الزهرى عن عُمارة بن خزيمة بن ثابت .

فآليت على نفسى ألاَّ أكتب آية إلاَّ إذا وجدتها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلاَّ آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلاَّ خزيمة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى خزيمة : « من شهد له خزيمة فحسبه » ولنا أن نعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمة من الأوس . لقد جمعهما الله فى جمع القرآن ، فنفع الأوسى الخزرجى ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهى أن التفاخر قبل الإسلام كان بغير الإسلام ، لكن ساعة يجىء الإسلام فأى واحد من أى جنس مادام قد أحسن الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسىّ أن تقول : « منا خزيمة » ؛ فالخزرجى له الفخر بخزيمة أيضا ، وليس للخزرجى أن يقول : « منا زيد بن ثابت » فللأوسى أيضا أن يفخر به ، لأن كُلاً منهما قد جمعه الله بالآخر فى القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبلِ الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » إنّ الحرب ظلت مستعرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القبيلتين واحد ، هما أخوان لأب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وهذا يدلنا على أن كل نزغةٍ جارحةٍ من الجوارح لابد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فاليد لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصفعة توجد فى القلب أولا « فألف بين قلوبكم » ، إن الحق سبحانه يقول : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » والشفا هى الحافة.ومرة يقال : « شفا » ، ومرة يقال: « شفة » . لقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع ، فكأن الله يقول : لقد تداركتم بالإسلام ، ولولا الإسلام لهويتم فى النار .

ويقول سبحانه : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وهكذا نرى نعمة الإسلام فى الدنيا ، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها فى الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤرقين بالاختلافات ، وموزعين بالعصبية ، وكل يوم فى شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمة عاجلة فى الدنيا ، والدنيا كما نعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون فى الآخرة وهى دار الجزاء والبقاء .

وقوله الحق : « لعلكم تهتدون » المقصود به أن تظلوا على هدايتكم . لقد خاطبهم الحق : « إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وساعة يطلب التشريع منك ما أنت عليه ، فاعلم أن التشريع يريد منك استدامته ، فعندما يقول الحق (يا أيها الذين آمنوا) أى مع الإيمان الذى معكم قبل كلامى ، جددوا إيمانا بعد كلامى ليستمر لكم الإيمان دائما . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وكلمة « أمة » تطلق مرة ، ويراد بها الجماعة التى تنتسب إلى جنس ، كأمة العرب ، أو أمة الفرس ، أو أمة الروم ، ومرة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الملة أى الدين ، ومرة ثالثة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الفترة الزمنية كقول الحق :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن الرجل الذى فسر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدنا يوسف بعد أمة أى بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة « أمة » على الرجل الجامع لصفات الخير :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

لأن خصال الخير ليس من الضرورى أن تجتمع فى واحد ، ولكنها قد تجتمع فى عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره متصف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالثة ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصال الخير المكتمل .

وساعة أن تأتى لإنسان ونقول له : ليكن منك شجاع فما معنى ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريبها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا ، أو تقول لآخر : ليكن منك كريم ، أى أخرج من نفسك رجلا كريما .

وقوله الحق سبحانه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » .

هذا القول يعنى أن يكون منكم أيها المخاطبون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعنى : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكنّ هناك فهما أعمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، أى أن هذه الآية تطالب كُلَّ أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها آمرة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذى يأتى المنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهى غيره عن المنكر ، أى أن الإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول : ألاّ يصنع المنكر ، والثانى : أن ينهى عن المنكر . ولذلك إن جاء نصح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر :

خـذ بعلمى ولا تـركن إلى عمـلى
واجن الثمار وخـل العـود للنـار

لكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يدخل فى زمرة من قال الله فيهم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن فقوله الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » أى جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة على أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾

(سورة العصر)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح . وبعد ذلك قال الحق : « وتواصوا » ولم يقل « ووصوا » ما معنى « تواصوا » ؟ أى أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موص ـ بكسر الصاد ـ حينما نجد مَنْ من يضعف أما معصية . وكلنا موصًى ، ـ بفتح الصاد ـ حين يكون ضعيفا أمام المعصية ؛ فالتواصي يقتضى التفاعل بين جانبين . . فمرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصًى ، وكذلك التواصي بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتى أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم فى وقت ما إلى أن يُصَبَّر ، يجد من إخوته من يصبره ، فالأمة كلها مطالبة : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هكذا نفهم معنى قول الحق:« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن النكر .

ويقول الحق : « وأولئك هم المفلحون » أن كلمة « المفلحون » هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة . والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه فى النهاية ، وقد جاء الحق بالمسألة المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر

فيقول : إياك أن تظن أن المشقة التى تصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن النقص الذى تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، فمثلا الإنسان الذى فلح الأرض وأخرج « كيلة » من القمح وبذرها فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له : إننا لا نملك إلا أربع « كيلات » من القمح فكيف تأخذ « كيلة » لترميها فى الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن « الكيلة » التى أخذها الزوج هى التى ستأتى بعدد من الأرادب من القمح . فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذى يشقى بالحرث وبالرى ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتغوص أقدامه فى الطين والمياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بغلته . أما غيره الذى لم يشْقَ بالحرث ولم تعل جبهته حبات العرق ، فيأتى فى هذا اليوم وهو حزين ونادم.فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنها أمور تربّب لك النفع أى تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين .

وقلنا من قبل : إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمنى لكل الناس ألاّ يسرقوا شيئا من هذا الإنسان ، وهنا نجد الأمان ينتشر بالإيمان بين الجميع .

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد عيونه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمى الله لك محارمك من عيون الناس ، لقد قيَّد التكليف حرية الآخرين من أجلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأنت واحد . .

إذن فيجب أن نذكر أن كل تكليف يعطى صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة ، وتعطيك سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ،فلا تنظر إلى ما أخذه التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل : إن التكليف قد نقص حركتى لنفسى ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) ﴾

وهذا القول الحكيم ينهى عن اتباع الهوى الذى يؤدى إلى الفرقة . برغم وضوح آيات الحق سبحانه لهم ، لأن هؤلاء الذين يتبعون الهوى من بعد وضوح قضية الحق سيصليهم الله النار ، ولهم عظيم العذاب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات فى الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله فى تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة ، لأن المادة الملونة للبشرة فى جسده موجودة بقوة ، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة ، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافى من المادة الملونة ، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة .

إذن فالسواد فى الدنيا لصالح المسود ، أما فى هذه الآية ، فهى تتحدث عما سوف نراه فى الآخرة حيث يكون السواد والبياض مختلفين ، تماما كما تتبدل الأرض غير

الأرض والسموات غير السموات ، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض ، انه لن يكون سواداً أو بياضا من أجل البيئات . ولذلك ستتعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسان كانا أسود فى الدنيا ، وتجده أبيض فى الآخر ، وتجد إنسانا آخر كان لونه أبيض فى الدنيا ثم صار أسود فى الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود فى الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطى كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمده باللون الذى يقويه على البيئة التى يحيا فيها . وفى مجالنا البشرى ، نحن نعطى المصل لأى إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى نحميه من شر مرض فى المكان الذى يذهب إليه ، كذلك خَلْقُ الله فى الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان فى تكوينه المناعة التى تحفظه ؛ فالله لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة . وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتبارى ، بدليل أنك ترى واحدا أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه قترة ، وترى واحداً آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، وبريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

أى أن ما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان ، وتظهره ملامحه ، فقد يكون الأسود مضيء الوجه بالبشر والإشراق والتجلى بالجاذبية الآسرة ، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح .

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة إنسان فى الدنيا ، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواؤم مع البيئة ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع أحد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ . لا ؛ لأن كل شيء معد لمهمته .

ومثال آخر : عندما يأتى عامل البناء ليثنى عمود الحديد المستقيم ؛ ويلويه ، فهل

يقال : إن هذا الإنسان قد عوج الحديد ؟ . لا ؛ إنه يريد أن يشكل عود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة . وكذلك الاسوداد أو الابيضاض فى الدنيا ، إنما أراده الله ليتناسب مع ظروف الحياة فى البيئة ، أما فى الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت ، والأرض لن تكون هى الأرض والسماء لن تكون هى السماء ؛ فالحق يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

فالمؤمن حين يرى ما أعده الله له من النعيم المقيم يقابل عطاء الله باستشراف نفس وسرور وانبساط ، أما الذى يرى مقعده من النار فلابد أن يكون مظلم الوجه . والحق سبحانه يوجه سؤالا لهؤلاء : « أكفرتم بعد إيمانكم » أو كأن هذا أمر يُفاجىء من كان يعرف هؤلاء الناس فى الدنيا ؛ فقد رأوهم فى الدنيا بيض الوجوه ، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، فيقولون لهم : « أكفرتم بعد إيمانكم »؟ . وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هى سمتهم وعلامتهم فى الآخرة أى ما الذى صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعنى أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان . أو يكون « أكفرتم بعد إيمانكم » يجعلنا نقول : البعدية هنا لابد أن يكون لها قبلية : ألم يأخذ الله على خلقه عهدا فى عالم الذر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

إنه إقرار إيمانى موجود فى عالم الذّر ، فمن جاء فى الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ، بعد أن جاءتكم به البشارات التى

عرفتموها ، وقرأتموها فى التوراة والإنجيل ، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة ، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فهذا القول ، إما أن يكون فى المرتدين ، وإما أن يكون الكفر فى واقع الدنيا بعد الإيمان فى عالم الذر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارة فى التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيعا ، كالفرق التى خرجت عن الإسلام ، وهى تدعى الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحتمل كل هذا ، وعندما نمعن النظر إلى النص القرآنى نجده يستوعب كل هذه المعانى .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط : « أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهذا قول يختص بالكفار فقط يذوقون العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعنى أن المؤمن بإيمانه سينال ثواب عمله . يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاء المؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأعراف)